الفصل الأول

المناسبات بين المعاني اللغوية وسياقاتها اللفظية

المبحث الأول

المناسبة بين الأسماء والسياق اللغوي

إنّ المعاني الوظيفية للأسماء إمّا أن تكون صرفية تتصل ببنية اللفظ، وإمّا نحوية تتصل بالموقع الذي يقع فيه. ثم يمكن تناول المعاني الوظيفية للأسماء ومناسبة هذه المعاني للسياق اللغوي من خلال ما تدل عليه مباني الأسماء ثم ما تدل عليه مواقعها الوظيفية.

أولاً: المعنى الوظيفي لبنية الاسم [المعنى الصرفي]

تتعدد هذه المعاني وتختلف بحسب اختلاف الأسماء وأنواعها، فمنها ما يتصل بصيغة اللفظ من حيث تعريفه وتنكيره، ومنها ما يتصل بصيغته من حيث نوعه تذكيراً وتأنيثاً، ومنها ما يتصل به من حيث عدده إفراداً وتثنية وجمعاً، ومنها ما يتعلق به من حيث اشتقاقه، كأسماء الفاعلين والمفعولين وصيغ المبالغة، ومنها ما يتعلق بالأسماء التي لا اشتقاق لها، كالموصولات وأسماء الإشارة والضمائر والظروف[1].

وسنعرض هذه الأمور كما يأتي:

١- الأسماء ذات الصيغ المحددة، وتشمل:

أ – النكرة والمعرفة:

«النكرة كلّ ما علق في أول أحواله على الشياع في مدلوله، والمعرفة

---

(١) المناسبة في القرآن: ١٦٧.

كلّ ما علق في أول أحواله على أن يخص مسماه»[1].

يعرّف ابن عصفور النكرة والمعرفة بقوله: «يقول العلوي: «اعلم أنّ المعرفة، ما دلّت على شيء بعينه، والنكرة، ما دلّت على شيء لا بعينه»[2] فالتنكير يعطي الاسم دلالة على الشيوع والعموم، والتعريف يعطيه دلالة على التخصيص والتحديد. إذا اقتضى السياق التحديد أو التخصيص، فإنّه يؤتى باللفظ معرّفاً ليدل على هذا المعنى منها لفظ (الحق) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾[3] فالسياق هنا يتحدث عن الذين كفروا ممن يجادلون في آيات الله، ويكذبون بالكتاب وما أرسل به الرسل؛ إذ يلقون في النار يوم القيامة، فيقال لهم: أين هؤلاء الذين كنتم تشركون بالله؟ يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[4]، فـ«لو قال بغير حق لم يكن في ذلك إشارة إلى الكفر ونكران الدين بل إنّ الذي يفهم في هذه الحالة هو (ضد الباطل) وليس (ضد الإيمان) أمّا تعريف الحق فقد صرف المعنى إلى الاحتمال الثاني»[5] فناسب التعريف هنا ليحدد المعنى المراد من اللفظ[6].

---

(١) شرح جمل الزجاجي: ٢/١٣٤.

(٢) الطراز: ٢٠٨.

(٣) سورة غافر، الآية: ٧٥.

(٤) سورة غافر، الآتين: ٧٣-٧٤.

(٥) البيان في روائع القرآن: ٢٧١.

(٦) ينظر: المناسبة في القرآن: ١٦٨.

ويأتي استعمال الأسماء المنكرة والمعرفة في القرآن الكريم إذا منحها السياق دلالة أخرى تضاف إلى معناها الأصلي. فإذا اقتضى السياق الشيوع والتعميم وما يتولد عن هذا إبهام أو تهويل أو تعظيم، بحسب موقع الكلمة من سياقها اللغوي جاء اللفظ منكراً، منها مجيء لفظ (رجلٌ) في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[1] «فليس المراد هنا تعيين الرجل، ولكن يراد هنا أن يصل إلى موسى نبأ الائتمار عليه بالقتل»[2] وذلك كي ينجو بنفسه من هؤلاء القوم في أسرع وقت.

ومن هنا كان تنكير هذا اللفظ؛ إذ ليس التركيز في هذا السياق على الرجل الذي أوصل الخبر، بل التركيز على وصول الخبر نفسه، فناسب أن يأتي اللفظ منكراً.

وقد ورد التنكير متفقاً مع سياق الحال كتنكير لفظ (أودية) كما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾[3] وذلك؛ لأنّ الغيث عند نزوله من السحاب لا يصيب جميع الأودية في وقت واحد، بل يصيب بعضها فحسب ولو قيل: فسالت الأودية، بالتعريف، لدل على إنّ الغيث عند نزوله يصيبها جميعاً في وقت واحد، وهو ما لا يتفق مع واقع الحال ومن ثم جاء التنكير؛ ليتفق اللفظ مع المقام، وهو ما يعبر عنه الزمخشري قائلاً: «فإن قلت: لم نكرت الأودية؟ قلت: لأنّ المطر لا يأتي إلاّ على طريق المناوبة بين البقاع،

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٠.

(٢) من بلاغة القرآن: ١٢٨.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٧.

فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض»[1].

وقد يأتي التنكير فيفيد التحقير كما في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾[2] فالتنكير في لفظ (نطفة) أفاد التحقير لهذا الإنسان الكفور الطاغي الذي نسى أنّ خلقه كان من نطفة ضئيلة، ولولا قدرة الله القادر ما كان لها شأن يذكر، يقول د. أحمد بدوي: «وقد تكون الكلمة النكرة موحية بمعنى حقير إلى النفس، كما في قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[3] وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾[4] لكن ابن عاشور رفض أن يكون ذكر النكرة في هذا المقام للتحقير، فقال: «وليس في ذكر النطفة هنا إيماء إلى تحقير أصل نشأة الإنسان؛ لأنّ قصد ذلك محل نظر، على إنّ المقام هنا للدلالة على خلق عظيم، وليس مقام زجر المتكبر»[5].

وقد تأتي النكرة للتكثير أو التعظيم كلفظ (رسل) في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[6] فالمقام هنا مقام مواساة للرسول؛ للتخفيف عنه ممّا يلقي من تكذيب قومه له وإعراضهم عنه، فجاء التنكير ليوحي بكثرة الرسل الذين كذبهم قومهم، وليس هو الوحيد.

---

(١) الكشاف: ٥٢٣/٢.

(٢) سورة عبس، الآيات: ١٧-١٩.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٧٣.

(٤) من بلاغة القرآن: ١٣٠.

(٥) التحرير والتنوير: ١٢٣/٣٠.

(٦) سورة فاطر، الآية: ٤.

يقول ابن يعقوب المغربي: «فنكير (رسل) هنا يناسب التكثير، أي: ذوو عدد كثير، فأفاد كثرة عدد الرسل ويناسب التعظيم أيضاً، أي: وذوو آيات عظام، فإنّ عظم آية الرسالة ممّا يدل على عظمة شأن الرسول في رسالته، فالأول ينظر إلى التكثير، والثاني ينظر إلى التعظيم، والغرض تسلية النبي ﷺ في عدم إيمان الكفرة وأمره بالتأسّي عن قبله في عدم المبالاة بهم والأسف عليهم؛ لأنّ المراد هذا الذي فعل معك من الإنكار وعدم التصديق شأن الكفرة مع الأنبياء، فتأس بهم بالعبد، حتى يأتي الفتح»[1].

وقد استعمل التعبير القرآني اللفظ الواحد منكراً في سياق ومعرفاً في سياق آخر مشابه للأول بحسب مقتضيات المقام وما يتطلبه من دلالات تنشأ عن تعريف اللفظ أو تنكيره، ومن ذلك لفظ (النار) الذي نراه يأتي بصيغة التعريف في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾[2] ثم يأتي منكراً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[3].

ويرى ابن حيان اختلاف اللفظ في الآيتين راجع إلى أنّ آية التحريم نزلت بمكة قبل آية البقرة التي نزلت في المدينة، واللفظ إذا تكرر اكتسب التعريف[4]، وهو تعليل يغفل جانب السياق الذي ورد فيه كلا اللفظين، وإذا رجعنا إلى سياق الآية الأولى، وجدنا أنّ الخطاب فيها موجة للكافرين الذين

---

(١) مواهب الفتاح: ٣٥٢/١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٤) البحر المحيط: ٢٤٩/١.

يشككون في القرآن ويجعلون لله شركاء، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

وهؤلاء الكافرون توعّدهم الله بعذاب شديد يوم القيامة ونار يصلونها، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾[2] فمعرفتهم للنار يومئذٍ ليست مجرد معرفة سماع أو رؤية، بل معرفة عن تجربة، عندما يلقون فيها، ومن هنا كان من المناسب تعريف النار في هذا المقام. وأمّا الآية الثانية فالخطاب فيها موجّه للمؤمنين الذين وعدهم الله بالجنة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[3].

ويقول أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[4] فمعرفتهم للنار لا تتعدى أن تكون معرفة سماع في الدنيا أو رؤية في الآخرة، فإن عصوا ربهم فعقابهم على ذلك العصيان لا يكون بقدر ما يعاقب به الكافرون، إذ لا يستوي من آمن وإن عصى ومن كفر، ومن هنا كان من المناسبة تنكير النار في ذلك الموضع لإبهامها وتقليلها[5].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٢-٢٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٩.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١٠٧.

(٥) ينظر: من الإعجاز اللغوي: ١٣٢.

ب- المذكّر والمؤنّث:

قد يحتمل السياق القرآني أن تستعمل فيه بعض الألفاظ على وجهين مختلفين من حيث التذكير والتأنيث، فيؤثر التعبير القرآني أحد الوجهين على الآخر؛ لاتفاقه مع دلالة السياق أو بنيته، مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾[2]. فقال في الآية الأولى: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا﴾ بضمير المؤنّث. وقال في الآية الثانية: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ﴾ بضمير المذكّر.

ولعل الاختلاف في الآيتين بين التذكير والتأنيث يرجع إلى أنّ القصد في الآية الأولى إبراز جعل مريم وابنها -عليهما السلام- آية للعالمين، فناسب أن يرجع الضمير إلى مريم بوصفها آية من آيات الله، وأمّا السياق في الآية الثانية فهو سياق يضرب فيه المثل بمريم التي آمنت بربّها محصنة فرجها ومصدّقة بكلمات ربّها وكتبه، فالقصد فيه ضرب المثل بإيمان مريم، فناسب ذلك أن يرجع الضمير إلى إحصان فرجها بوصفه صورة من صور الإيمان.

ونرى لفظ (القانتين) في الآية الكريمة يتحدث عنه الزمخشري قائلاً: «فإن قلت: لِمَ قيل: (من القانتين) على التذكير؟ قلت: لأنّ القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين، فغلب ذكوره على إناثه»[3].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩١.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١٢.

(٣) الكشاف: ٤/٥٧٣.

فهو بهذا التعليل يشير إلى جانب سياق الحال، كما يشير إلى جانب الاستعمال اللغوي.

أمّا ابن عاشور فيقول: «وغلبت صيغة جمع الذكور ولم يقل: من القانتات، جرياً على طريقة التغليب، وهو من تخريج الكلام على مقتضى الظاهر، وهذه الآية مثال في علم المعاني، ونكتته هنا الإشارة إلى أنها في عداد أهل الإكثار من العبادة وأنّ شأن ذلك أن يكون للرجال؛ لأنّ نساء بني إسرائيل كنّ معفيات من عبادات كثيرة»[1].

ويأتي تذكير الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[2] ثم يأتي الاسم مؤنثاً في مقام مشابه، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[3] قال ابن حيان بارزاً العلاقة بين كلاً اللفظين وسياق الحال، إذ يقول بادئاً بآية سبأ: «وقيل هنا: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وفي السجدة ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ كلّ منهما، أي: من العذاب ومن النار؛ لأنّهم هنا لم يكونوا ملتبسين بالعذاب، بل ذلك أول ما رأوا النار، وأمّا الذي في السجدة، فهو مُلابس والعذاب مترددون فيه؛ لقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ فوصف لهم العذاب الذي هم مباشروه، وهو

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٧٩/٢٨.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٢٠.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٤٢.

العذاب المؤبد الذي أنكروه»[1].

وقد يؤثر النظم القرآني في بعض الأحيان أن يغلب المذكّر على المؤنّث، في موضع تعين للثاني، لعلة دلالية، يقتضيها المقام، في قوله تعالى: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[2] فقال: مع الراكعين، وهي من الراكعات، فغلب المذكر على المؤنث، قال البقاعي: «ولم يقل: مع الراكعات، لأنّ الاقتداء بالرجال أفضل وأشرف وأكمل»[3].

وقال الزمخشري: «﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ بمعنى: ولتكن صلاتك مع المصلين أي: في الجماعة أو انظمي نفسك في جملة المصلين، وكوني معهم في عدادهم، ولا تكوني في عداد غيرهم»[4].

ج- المفرد والمثنى والجمع:

قد يتصل إفراد اللفظ أو جمعه في القرآن الكريم بدلالة السياق أو بنيته، فيأتي باللفظ الواحد على أكثر من شكل من حيث عدده في مواضع مختلفة تبعاً لما يقتضيه السياق ومثال ذلك: جمع لفظ (خطيئة) جمع تكسير في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[5].

---

(١) البحر المحيط: ٢٧٤/٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٣.

(٣) نظم الدرر: ٨٠/٢.

(٤) الكشاف: ٤٣٠/١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٥٨.

ثم جمع اللفظ نفسه جمع سلامة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

فقال في الآية الأولى: ﴿خَطَٰيَٰكُمْ ۚ﴾ وهو جمع يدل على الكثرة، وقال في الآية الثانية: ﴿خَطِيٓـَٔتِكُمْ ۚ﴾ وهو جمع يدل على القلة، والدليل أنَّه إذا صغرَّ جمع التكسير «وإن كان له واحد من لفظة فلا يخلو من أن يكون له جمع قلة أو لا يكون، فإن كان له جمع قلة ردّ إليه وصغر جمع القلة نحو فلوس نقول فيها أفليس؛ وما ليس له جمع قلة ردّ إلى واحده، وصغر الواحد وجمع بالألف والتاء إن كان لما لا يعقل»[2]، ومن ذلك لفظ دراهم الذي يصغر على (دُريهَمات)، فيرد إلى المفرد ثم يصغر، ويجمع جمع القلة الملائم للتصغير، وكذلك لفظ (خطايا)[3].

وقال الخطيب الإسكافي: «استعمل لفظ الكثير في الموضع الذي جعل الإخبار فيه عن نفسه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟﴾ وشرط لمن قام بهذه الطاعة ما يشرطه الكريم إذا وعد من مغفرة الخطايا كلها، وقرن إلى الإخبار عن نفسه جلّ ذكره، ما يليق بجوده وكرمه، وأتى باللفظ الموضوع للشمول فيصير كالتوكيد بالعموم، كما لو قال: نغفر لكم خطاياكم كلها أجمع، ولما لم يسند الفعل في سورة الأعراف إلى نفسه عزّ اسمه، وإنّما قال: ﴿وَإِذْ قِيلَ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦١.

(٢) ينظر: المناسبة في القرآن: ٢٠٨ ، وشرح الجمل: ٢٩١/٢.

(٣) شرح الجمل: ٢٩٢/٢.

لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ فلم يسمّ الفاعل، أتى بلفظ الخطيئات، وإن كان المراد بها الكثرة كالمراد بالخطايا، إلاّ أنه أتى في الأول لما ذكر الفاعل بما هو لائق بضمانه من اللفظ، ولما لم يُسمّ الفاعل في الثاني في سورة الأعراف، وضع اللفظ غير موضعه للفرق بين ما يؤتى به على الأصل وبين ما يعدل عنه إلى الفرع»[1].

د- الأسماء المشتقة: كأسماء الفاعلين والمفعولين وصيغ المبالغة:

استعمال التعبير القرآني اسم المفعول في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[2] فقال ﷻ: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾، ولم يقل: (غضبن)؛ ليتفق مع قوله: ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾، وذلك لأنّ السياق سياق دعاء من العباد إلى ربهم أن يهديهم صراطه المستقيم، ذلك الصراط الذي أنعم به على مَن اهتدى من عباده، فكان من المناسب أن يسند الإنعام إليه؛ لأنّ المقام مقام دعاء ورجاء، ولم يكن ليناسب أن يُسند الغضب إليه؛ لأنّ من يطلب الهداية لا يستحق غضب الله عليه بل إنعامه عليه بها.

وقال السمين الحلبي: «وأتى بصلة أل اسماً ليشمل سائر الأزمان وجاء به مبيّناً للمعقول تحسيناً للفظ؛ لأنّ من طلبت منه الهداية ونسب الإنعام إليه لا يناسبه نسبة الغضب إليه؛ لأنّه مقام تلطّف وترفّق لطلب الإحسان، فلا يحسن مواجهته بصفة الانتقام»[3].

---

(١) درة التنزيل: ٦٨.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٦-٧.

(٣) الدر المصون: ١/٧٥-٧٦.

وقد استعمل التعبير القرآني صيغ المبالغة على أوجه متعددة، فيأتي باللفظ الواحد على أكثر من صيغة في مواضع مختلفة أو يأتي بأكثر من صيغة لمعانٍ مختلفة في موضع واحد، نحو صيغتي (فعَّال) و(فعول)، وتدل الأولى على تكرار حدوث الفعل لما في هذه الصيغة من تضعيف.

قال المبرد: «تقول: رجل قتّال، إذا كان يكثر القتل. فأمّا قاتل فيكون للقليل والكثير؛ لأنّه الأصل وعلى هذا نقول: رجل ضرّاب وشتّام»[1].

وأمّا الثانية فتدل على حالة ثابتة أو مستقرة تحدث مرة بعد مرة دون انقطاع وهو ما يشير غليه المبرد بقوله: «تقول: هو ضروب زيداً، إذا كان يضربه مرة بعد مرة»[2].

وفرق أبو هلال بين الصيغتين قائلاً: «وإذا كان قويّاً على الفعل مثل: (فعول) مثل (صَبوُر) و(شكُور)؛ وإذا فعل الفعل وقتاً بعد وقت قيل: (فعّال) مثل (علاّم) و(صبّار)»[3].

ويرى ابن جماعة أنّ صيغة (فعول) تدل على الدوام كصدوق ورحوم وشبهه. أمّا صيغة (فعّال) لا تشعر بالدوام، كنوّام وركّاب وأكّال[4].

وقال ابن يعيش: «إنّما يعملونه فيما كان صنعة ومعالجة لتكثير الفعل؛ إذ صاحب الصنعة مداوم لصنعته، فجعل له البناء الدال على التكثير، وهو فعال بتضعيف العين؛ لأنّ التضعيف للتكثير، وما كان من هذا ذا شيء وليس

---

(١) المقتضب: ١١٢/٢.
(٢) المصدر السابق: ١١٣/٢.
(٣) الفروق اللغوية: ٣٦.
(٤) كشف المعاني: ٢٢٠.

بصنعة يعالجها أتوا بها على (فاعل)، وذلك لأنّ فاعلاً هو الأصل، وإنّما يعدل عنه إلى فعال للمبالغة، فإذا لم ترد المبالغة جيء به على الأصل»[1].

وقد يتصل سياق التعريف بالموصولية بما يتصف به من صفة التقرير بطبيعة الغرض المسوق له الكلام، نحو قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2].

قال ابن يعقوب المغربي: «فالغرض المسوق له الكلام نزاهة يوسف وبعده عن مظنة الفحشاء، وما ذكر أشد تحقيقاً وتقريراً لتلك النزاهة ممّا لو قيل وراودته امرأة العزيز؛ لأنّه إذا امتنع مع كونه في بينها متمكناً في خلوة منها كان في غاية النزاهة، ونهاية في الطهارة باطناً وظاهراً عن الفحشاء وفيه تقرير المراودة التي هي المسند لما يفيده كونه في بيتها من فرط الألفة والاختلاط في خلوة، فيتمكن منها على أتم وجه، وقد أفاد تقريرها ووجودها بأتم وجه بما ذكر من الموصول وصلته، وفيه أيضاً تقرير المسند إليه ونفى احتمال التشابه والاشتراك اللذين يمكن حصولهما لو قيل مثلاً: امرأة العزيز أو زليخا»[3] فناسب بهذا أن يستعمل التعبير القرآني الاسم الموصول في هذا الموضع دون غيره؛ لاتفاقه ومقتضى الحال.

---

(١) شرح المفصل: ٦/١٣.

(٢) سورة يوسف، الآيتان: ٢٣-٢٤.

(٣) مواهب الفتاح: ١/٣٠٥.

٢- أسماء الاشتقاق لها:

هناك من الأسماء التي لا تتصف بصفة الاشتقاق ما يستعمله الأسلوب القرآني فمن ذلك ما يلي:

١- الموصولات:

قال ابن يعيش: «معنى الموصول أن لا يتم بنفسه ويفتقر إلى كلام بعده تصله به ليتم اسماً. فإذا تم بها بعده كان حكمه حكم سائر الأسماء التامة»[١].

وقد تستعمل الأسماء الموصولة للدلالة على ما هو مبهم وغير محدد، إذ هي -على حد قول ابن يعيش- «ضرب من المبهمات وإنّما كانت مبهمة لوقوعها على كلّ شيء من حيوان وجماد وغيرهما كوقوع هذا وهؤلاء ونحوهما من أسماء الإشارة على كلّ شيء»[٢].

وقد يتصل سياق التعريف بالموصولية بما يتصف به من صفة التقرير بطبيعة الغرض المسوق له الكلام نحو قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٣].

ومما ورد في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[٤].

---

(١) شرح المفصل: ١٣٨/٣.

(٢) المصدر السابق: ١٣٩/٣.

(٣) سورة يوسف، الآيتان: ٢٣-٢٤.

(٤) سورة طه، الآية: ٧٨.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾[1]. فأبهم في الآيتين ما غشيهم، ولم يصرح به.

قال العلوي تعقيباً على الآية الثانية: «فهذه أبلغ من الآية التي قبلها؛ لأنَّ إبهامها أكثر، فلهذا كان أبلغ وأوقع، ولهذا قال في الأولى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ واليم هو البحر، فصار الذي أصابهم من الألم والتعب إنّما هو من البحر خاصة لا من غيره، بخلاف الثانية، فإنّه أبهم فيها الأمر الذي غشيها، ولم يخصه بجهة دون جهة وهذا لا محالة يكون أبلغ؛ لأنّ الإنسان يرمى به خاطره فيه بكل مرمى، ويذهب به كلّ مذهب»[2].

لقد عرّفها الأزهري بأنها: «كلّ اسم دال على مسمى وإشارة إليه»[3] وكلّ واحد من هذه الأسماء يدل على قرب المسافة أو بعدها[4]. بحسب بنيته، والمعنى الوظيفي لها هو الدلالة على عموم الخطاب بالإشارة.

ويتنوع الأسلوب القرآني في استعمال هذه الألفاظ، على وفق المقامات المختلفة، فإن كان المقام يدل على قرب المشار إليه، جيء باللفظ الدال على القرب، مذكّراً كان أو مؤنثاً، مجموعاً أو مثنى أو مفرداً[5].

٢- أسماء الإشارة:

قال ابن يعيش: «لو قلت ذلك، فذا إشارة إلى القريب بتجردها من قرينة تدل على البعد فكانت على بابها من إفادة قرب المشار إليه لأنّ حقيقة

---

(١) سورة النجم، الآية: ٥٣-٥٤.

(٢) الطراز: ٢٤١ ، وينظر: الآيات المبهمات في القرآن دراسة بلاغية: ٢١.

(٣) شرح التصريح: ١٢٦/١.

(٤) المصدر السابق.

(٥) ينظر: من الإعجاز اللغوي: ١٥٣.

الإشارة الإيعاز إلى حاضر فإذا أرادوا الإشارة إلى متنح متباعد زادوا كاف الخطاب وجعلوه علامة لتباعد المشار إليه فقالوا ذاك»[1].

ونرى استعمال اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾[2] فقال ﷻ: ﴿ تِلْكَ ﴾، وهو لفظ يوحي (هذه) الخالي من هذا التعظيم، لأنّ السياق في هذا الموضع يتحدث عن الجنة التي يورثها الله من عباده من كان تقيّا، والتقوى -كما يذكر أبو حيان- لا تكون إلاّ في أمر فيه مشقة[3]. فالجنة لا تنال إلاّ بالشاق من العمل من صبر على المكاره وإخلاص في العبادة لهذا قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[4] فلم يقل (اصبر) بل قال: (اصطبر) بالمبالغة في اللفظ لما في العبادة من مشقة ومن ثم كان مجيء اسم الإشارة الدال على التعظيم في هذا الموضع؛ ليتفق في دلالته مع عظم الجنة وأنها بعيدة المنال إلاّ على من أخذ نفسه بالشدة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾[5] فقال ﷻ: ﴿هَٰذِهِۦ ﴾ للدلالة على إنّها قريبة منهم.

قال ابن كثير: «أي: هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً»[6]

---

(١) شرح المفصل: ٣/١٣٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦٣.

(٣) ينظر: البحر المحيط: ٢/٦١.

(٤) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٥) سورة الرحمن، الآيتين: ٤٣-٤٤.

(٦) تفسير القرآن العظيم: ٤/٢٧٥.

وأيضاً قال ﷻ: ﴿هَٰذِهِۦ﴾، ولم يقل: (تلك)؛ لأنّ المشهد يصور هؤلاء المجرمين الذين كذبوا بآيات الله، وهم يساقون إلى جهنم التي كذبوا بها، فهي حينئذٍ، إذ يعرضون عليها، ويرونها تكون أمامهم قريبة منهم، قال البقاعي: «(هذه) أي: الحفرة العظيمة الكريهة المنظر القريبة منكم الملازمة للقرب لكم (جهنم التي يكذب) أي: ماضياً وحالاً ومآلاً»[1].

فلمّا كانت قريبة منهم، جاء التعبير القرآني باللفظ الدال على القرب (هذه) ليكون موافقاً لحال هؤلاء القوم من قربهم لجهنم ومشاهدتهم لها بأعينهم، قبل أن يذوقوا بأسها. وقد يخرج الأسلوب القرآني لهذه الألفاظ عن ظاهر معنى القرب إلى الدلالة على تحقير المشار إليه أو الاستهزاء به[2] كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[3]. قال الزمخشري: «وهذا استصغار و﴿بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ وإخراجه في معرض التسليم والإقرار وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء ولو لم يستهزؤوا لقالوا: أهذا الذي زعم أو ادعى أنه مبعوث من عند الله رسولاً»[4].

وجاء استعمال اسم الإشارة الدال على البعد، لغرض التعظيم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر: ٧/٣٩١.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ١٨٤.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٤١.

(٤) الكشاف: ٣/٢٨.

(٥) سورة الحجرات، الآية: ٣.

فأشار ﷻ إلى الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله، فلا يرفعونها باسم الإشارة الدال على البعد، بما يحتويه من كان الخطاب (أولئك) ولم يقل (هؤلاء) الخالي من هذه الدلالة؛ ليدل على عظم مكانة هؤلاء القوم عند الله تعالى وعلوّ شأنهم، إذ يتأدّبون بآداب الإسلام، مخاطبتهم لرسول الله، فيعرفون فضله، ويعطونه حقه من التبجيل والاحترام[1].

قال الزمخشري: «وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسماً لأن المؤكدة، وتصير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً والمبتدأ اسم الإشارة واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم وإيراد الجزاء نكرة مبهماً امره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله ﷺ وقدر شرف مترلته، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء»[2].

٣- الظروف:

يعرّفه ابن يعيش بأنه: «ما كان وعاء لشيء، وتسمى الأواني ظروفاً؛ لأنّها أوعية لما يجعل منها، وقيل للأزمنة والأمكنة ظروف؛ لأنّ الأفعال توجد فيها، فصارت كالأوعية لها، والظرف على ضربين ظرف زمان ومكان»[3].

ونرى استعمال الظرف الدال على المصاحبة كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾

(١) ينظر: من الإعجاز اللغوي: ١٥٥-١٥٦.

(٢) الكشاف: ٣٥٦/٤.

(٣) شرح المفصل: ٤١/٢.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[1].

فقال تعالى: ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، ولو قال: (من الساجدين)؛ لدل ذلك على إنّ إبليس من الملائكة؛ إذ الأمر بالسجود موجّه إليهم، وهو ليس كذلك قال ابن الزبير: «فأشرت الآية بظاهرها إلى أنّ إبليس من الملائكة، وقد نطقت الآية أنّ الملائكة هم المأمورون بالسجود، فبحسب هذا البادي من الظاهر وردت المعية في قوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ فلما لم يكن في أصل الخلقة والمادة منهم، وكان الأمر بظاهر العبارة لهم وأن كان مراداً أنه معهم، فبحسب هذا قيل له: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، فقيل: (معهم) إذ ليس منهم قال: فقال: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[2][3].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[4] فاختلف الظرفان في الجملتين، فجاء مع الإضاءة بـ(كلّما) ومع الإظلام بـ(إذا) وفي محاولة لإبراز وجه المناسبة بين كلاً الظرفين، كلّ في موضعه وسياق الحال.

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف قيل مع الإضاءة: كلّما، ومع الإظلام: إذا؟ قلت: لأنّهم حراص على وجود ما همهم به معقود من إمكان

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٨-٣٢.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٣) ملاك التأويل: ١/٤٨٨-٤٨٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠.

المشي وتأتيه، فكلّما صادفوا منه فرصة، انتهزوها، وليس كذلك التوقف والتحبس»[1] واعترض الزركشي على ما ذكره الزمخشري، واصفاً إياه بالتكلّف[2]، ورأى في سبيل إبرازه لوجه هذه المناسبة «أنّ مراتب الإضاءة مختلفة متنوعة، فذكر (كلّما) تنبيهاً على ظهور التعدد وقوته؛ لوجوده بالصورة والنوعية، والإظلام نوع واحد، فلم يؤتَ بصيغة التكرار لضعف التعدد فيه، بعدم ظهوره بالنوعية، وإن حصل بالصورة»[3].

المعنى الوظيفي لموقع الاسم [المعنى النحوي]:

إنّ لموقع اللفظ داخل التركيب الدور نفسه في تحديد تلك العلاقة، إذ قد يُبرز إبرازاً واضحاً في مواضع عديدة مدى المناسبة والعلاقة الدلالية بين اللفظ والسياق الوارد فيه، وفيما يلي صور لتلك العلاقة.

١- المسند إليه:

يمثل المسند إليه أحد ركني الإسناد في الجملة، سواء أكانت اسمية أم فعلية، ويمثل المسند الركن الثاني، وتربطهما علاقة هي علاقة الإسناد، ويفتقر كلّ منهما إلى الآخر، إذ يجب وجودهما لتتحقق الفائدة عند الإخبار بجملة ما[4].

والمسند إليه هو الركن الأعظم قال ابن يعقوب المغربي: «لأنّه عبارة عن الذات، والمسند كالوصف له، والذات أقوى في الثبوت من الوصف، فالمسند إليه والمسند، ولو افتقر في الإفادة إلى كلّ منهما لكن الدال منهما على الذات

---

(١) الكشاف: ٨٦/١.

(٢) البرهان: ٢٠٥/٤.

(٣) المصدر السابق: ٢٠٥/٤.

(٤) مفتاح العلوم: ١٧٠.

أشد في الحاجة عند قصد الإفادة من الدال على الوصف»[1].

قال سيبويه: «وهما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بدّاً، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه، وهو قولك: عبد الله أخوك: وهذا أخوك، ومثل ذلك: يذهب عبد الله، فلابد للفعل من الاسم ما لم يكن للاسم الأول بدٌّ من الآخر في الابتداء»[2].

وقد يتقدّم المسند إليه على المسند إذا كان فعلاً، فيقع مبتدأه وقد يتأخر فيقع فاعلاً أو نائباً عن الفعل، وتتغير دلالة التركيب بتغير ذلك الموقع.

وفيما يلي بيان ذلك:

أ – موقع المسند إليه من حيث التقديم والتأخير:

قد يقدم المسند إليه في الجملة، لأسباب عديدة، منها أن يكون «ذكره أهم إمّا لأنّه الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه. وإمّا ليتمكن الخبر في ذهن السامع؛ لأنّ في المبتدأ تشويقاً إليه»[3].

وقال الإمام عبد القاهر الجرجاني: «فإن قلت: فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل، آكد لإثبات ذلك الفعل له، وأن يكون قوله: (هما يلبسان المجد)، أبلغ في جعلهما بلسانه من أن يقال: (يلبسان المجد)؟ فإنّ ذلك من أجل أنّه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلاّ لحديث قد نوى إسناده إليه. وإذا كان كذلك، فإذا قلت: (عبد الله)، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً: (قام) أو قلت:

---

(١) مواهب الفتاح: ١/٢٧٤.

(٢) الكتاب: ١/٢٣.

(٣) الإيضاح: ٨٤.

(خرج)، أو قلت: (قدم) فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأنفى للشبهة، وأمنع للشك، وأدخل في التحقيق»[1].

ونلاحظ تقديم المسند إليه تارة ثم تأخيره تارة أخرى في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[2].

فجاء الأسلوب القرآني بالمسند إليه مؤخراً في الآيتين الأولى والثالثة أي: في موضع الفاعل، وعدل عن ذلك في الثانية، فجاء به مقدماً أو في موضع المبتدأ «فإذا بحثنا عن السبب وجدنا تقديم لفظ الجلالة في مورده الثاني، وإنّما كان لوضعه موضع المقارنة مع الذين يتبعون الشهوات، أمّا في المرة الأولى والثالثة فالاهتمام معلق بالإرادة لا بالمقارنة»[3].

ب- اختلاف طبيعة المسند إليه أو مدلوله:

يقصد به أنّه قد يسند أكثر من فعل في سياق ما لمسند إليه معين، ثم يعدل الأسلوب القرآني في أحد الأفعال، فيسنده إلى فاعل آخر، أو يأتي فعل ذو دلالة معينة، فيسند إلى أكثر من مسند إليه في سياقات متعددة تبعاً لمقتضيات كلّ سياق.

---

(١) دلائل الإعجاز: ١٣٢.

(٢) سورة النساء، الآيات: ٢٦-٢٨.

(٣) البيان: ٣٧٩.

وقد يأتي إسناد الفعل الدال على التوخي في القرآن؛ مسنداً لأكثر من مسند إليه في سياقات متعددة، وقد يكون لمعناه المعجمي دور في ذلك، إذ يأتي -كما يقول ابن الجوزي- على ثلاثة وجوه:

أحدها: قبض الأرواح بالموت كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾[4].

والثانية: قبض الحس بالنوم كما في قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[6].

والثالثة: الرفع إلى السماء كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾[7].

فإذا تأملنا هذه الأوجه في القرآن الكريم نجد إنّه إذا جاء الفعل بمعنى (النوم) أسند إلى الله ﷻ، كما في الأنعام والزمر، ويلحق بهذا المعنى -على خلاف بين العلماء- قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[8] كذلك يسند إلى الله إن كان بمعنى الرفع كما في آية المائدة السابقة.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ٢٨.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١١.

(٤) سورة غافر، الآية: ٧٧.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٧) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

(٨) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

أمّا إذا جاء بمعنى الموت فالإسناد فيه على وجهين: إمّا إلى الله، وإمّا إلى غيره، فإن كان إلى الله فيأتي على صورتين: الأولى أن يكون الخطاب موجهاً منه ﷻ إلى أحد أنبيائه نحو قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾[1].

والصورة الثانية أن يكون الخطاب موجهاً من نبي أو ممن صلح من العباد إلى الله ﷻ كقوله: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[2].

ولعل هذا الإسناد يرجع إلى أنّ الخطاب موجه من الأنبياء والصالحين أو إليهم، وهم قوم -رضي الله عنهم وأرضاهم-، ولقاء الله عندهم أحب إليهم من البقاء في الدنيا، وإسناد التوفي إليه لا يقع في أنفسهم كما يقع في أنفس غيرهم ممن دونهم في الإيمان والتقوى[3].

وعندما يسند الفعل إلى غير الله فنرى المسند إليه يتعدد، فقد يسند إلى المفعول بعد حذف الفاعل، ويأتي ذلك في أربع آيات كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِى

(١) سورة يونس، الآية: ٤٦؛ والرعد: ٤٠؛ وغافر: ٧٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٣؛ والأعراف: ١٢٦؛ ويونس: ١٠٤؛ ويوسف: ١٠١.

(٣) ينظر: المناسبة: ٢٠٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[3].

ولعل العدول هنا من الإسناد من الفاعل إلى المفعول يرجع إلى أنّ الآيتين الأولتين سبقتا لتشريع العدة لمن يتوفى عنها زوجها وتحديد وقتها، والموجه إليها الحدين هنا قد يكون في حالة من الحزن الشديد لفقد زوجها، فجاء الأسلوب القرآني مراعياً تلك الحالة، فعدل عن الإسناد عن الفاعل الحقيقي إلى غيره؛ أي: لا يرتبط التوفي عند تلك المرأة وهي في هذه الحالة بالله حتى يتم لها الخروج من هذا الحزن.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٧.

أمّا الآية الثالثة فسيقت للحديث عن البعث، فكما خلق الناس من عدم؛ بادئاً خلقهم من تراب ثم من نطفة، ثم يتدرج نموّهم وتطورهم إلى أنّ يخرجوا إلى الحياة، ويبلغوا فيها أشدهم، فكان الحديث كلّه عن الإحياء بعد الممات لا عن الموت نفسه، فلم يكن من المناسب في هذا الموضع أن يسند التوفي إلى الله، ومن ثم عد الأسلوب القرآن هنا إلى الإسناد لغير الفاعل.

أمّا الآية الرابعة فسيقت للدلالة على قدرة الله ﷻ على خلق الناس من العدم ثم تطور خلقهم حتى يكونوا أطفالاً ثم شيوخاً، فالحديث هنا أيضاً عن الإحياء لا عن الموت.

ثم يأتي ﷻ بإحدى صفاته وهي الحي دون غيرها للدلالة على صفة الحياة التي وهبها للإنسان ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1]. فناسب مع هذا كلّه أن يعدل الأسلوب القرآني في هذا الموضع عن إسناد التوفي إلى الله؛ لإبراز أمر الحياة الذي يدل عليه سياق الآيات[2].

وقد سند فعل التوفي إلى الموت، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾[3].

قال الآلوسي: «وإسناده إلى الموت باعتبار تشبيهه بشخص يفعل ذلك، فهناك استعارة بالكناية، والكلام على حذف مضاف، والمعنى حتى يقبض أرواحهن الموت، ولا يجوز أن يراد من التوفي معناه المشهور، إذ يصير الكلام

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٥.

(٢) ينظر: المناسبة: ٢١٠-٢١١.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٥.

بمنزلة حتى يميتهن ولا معنى له إلاّ أن يقدر مضاف يسند إليه الفعل أي: ملائكة الموت، أو يجعل الإسناد مجازاً من إسناد ما للفاعل الحقيقي إلى أثر فعله»[1].

وجعل الإسناد بهذه الآية من قبيل الإسناد المجازي أو تقدير مضاف يسند إليه الفعل هو أمر يوضح المفارقة المعجمية بين الفعل وما أسند إليه، ولكنه لا يكشف عن السر وراء هذا الإسناد، وإذا تأملنا السياق النفسي للآية اتضح لنا هذا السر، إذ سيقت الآية لتشريع حد للاتي يأتين بفاحشة، وهو الحبس في البيوت حتى يقضى أجلهن ويجعل الله لهن مخرجاً، وذلك قبل أن تنسخ هذه الآية بالآية التي تليها، ثم نسخ ذلك بآية سورة النور وحديث الرجم في الثيب»[2]، ومن يُقضى عليها بهذا الحكم ويتم تطبيقه، فتظل في بيتها لا تخرج منه فإنّ الموت يصبح أملها وغايتها المنشودة في هذه الحياة؛ لتسترد به حريتها المسلوبة، ومن ثم كان من المناسب أشد المناسبة أن يسند الفعل إليه لا إلى غيره[3].

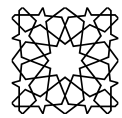

(١) روح المعاني: ٤/٣٦٦-٣٦٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣/٣١٤.

(٣) ينظر: المناسبة: ٢١٦-٢١٧.